



التفاوت الزمني بين صورتين نمطيتين للتاريخ العثماني

غُيِّبَتْ

الدراما العربية بحضور "التركية"



الناقد المصري رامي المتولي: "ممالك النار" فضح المذابح العثمانية ضد العرب.

دخلت الدراما التركية صراعًا مُحدثًا مع الدراما العربية خلال فترة زمنية محدودة مؤخرًا؛ إذ نشطت التركية في فترة ما بعد عام 2000 بغزوها للتلفزيون العربي بأعمالها المُدبّجة، التي عملت على تكريس صورة نمطية تتوافق مع التوجه السياسي، بينما بدأت الدراما العربية المصرية منذ فترة مبكرة في إظهار الصورة النمطية الحقيقية للعثمانيين الأتراك من خلال مجموعة أعمال درامية، لكن الأعمال العربية سبقت بعقود تقريبًا، ما جعلها بعيدةً عن ذهنية المشاهد العربي في ظل الحضور الدرامي التركي.

يقول الناقد الفني المصري رامي المتولي عن ذلك: "مع بداية عصر الفضائيات والانفتاح على الثقافات المختلفة تغيرت تفضيلات مشاهدي ومتابعي الدراما التلفزيونية، فمن الدراما المكسيكية للإسبانية ثم التركية والهندية، لكن التأثير الأكبر كان للتركية المدبّجة للعربية، التي لاقت انتشارًا ورواجًا كبيرين في البداية كدراما اجتماعية رومانسية ثم لمسلسلات تاريخية وسياسية أبرزها "وادي الذئاب" بأجزائه، والذي يمجّد الأجهزة الأمنية والمخابراتية التركية، كذلك رؤوس الجريمة المنظمة الذين يشكلون قوى رئيسة في المعادلة التركية"، ويؤكد أن الدراما التركية تحولت إلى بوق دعائي للرئيس التركي الحالي أردوغان، وأطماعه في موارد المنطقة العربية، ومحاكاة أحلامه بعودة الخلافة الإسلامية المزعومة للأتراك.

ويذهب المتولي إلى أن الدراما والمسلسلات التركية باتت ذراعًا أساسيًا للنظام التركي، الذي يسعى إلى تجميد المؤسسين الأوائل للدولة العثمانية سواء أرتغرل أو سليم الأول، ومنحهم صفات أسطورية، كذلك الحال مع آخر سلاطين الدولة العثمانية عبد الحميد الثاني، ويذكر أن "كل هذه المسلسلات صنعت على الشاشة ملائكة وبشر يتصفون بصفات إنسانية وقيمون العدل ولا يعتدون بل يدافعون، وهي أمور لا تمت للواقع بصلة، في النهاية هم قِوات احتلال ولقب خليفة المسلمين وأمير المؤمنين هو بدوره لقب مغتصب حازه السفاح سليم الأول بعد احتلاله مصر وتنازل الخليفة العباسي الذي كان يعيش في مصر بمنصب صوري عن اللقب".

في جانب آخر كانت الدراما العربية تتعامل مع ما هو عثماني وتركي بالكثير من الازدراء، فالشخصيات التركية والعثمانية في المسلسلات العربية، هي في الغالب شخصيات سلبية ذات سلوك قاسٍ وعنيف وظالم، لذا يشير الناقد رامي المتولي إلى أنه "عادة ما يتم تصويره كشخص غليظ يسير بالكراخ، لغته ركيكة ونطقه للعربية مضحك، فصورة التركي في الدراما العربية صورة نمطية تعبر عن الشر والظلم، لذا أصبح اللقب التركي "باشا" سيئ السمعة ودلالة على الفساد".



ويذكر رامي المتولي أن من أوائل الأعمال العربية التي تناولت الشخصية التركية في الدراما مسلسل "مارد الجبل" المصري، ويقول عنه: "من أوائل الأعمال التي تناولت الاحتلال العثماني، حيث عرض عام (1977م) من إخراج نور الدمرداش وسيناريو سنية قراة، وبطولة عدد كبير من النجوم على رأسهم نور الشريف، الشاب الذي يقاتل من أجل الحرية ويتحصن بالجبل المتاخم لقريته في صعيد مصر، حيث تدور أحداث المسلسل في الفترة التي تضم الصراع بين الوالي العثماني علي بك الكبير الذي قدم دوره في المسلسل أحمد ماهر وأهالي البلد مع شيخهم، وبسبب الظلم الذي وقع على أحمد بن شبيب (نور الشريف) من غريمه رواس (مصطفى متولى) على حب زينة (ليلى حمادة) يتحول أحمد لواحد من مطارد الجبل وناثر على كل الأوضاع الخاطئة ومن ضمنها الأتراك والظالمين من أهل بلده".

تقادم الأعمال الدرامية فتح المجال لـ "التركية" إلى تكريس صورتها في الذهنية العربية.

ويضيف "بحسب السيرة الشعبية في الدراما، فقد تكررت الصورة النمطية العربية تجاه الأتراك في مسلسل "علي الزبيق" عام (1985م)، قدم شخصية "علي" فاروق الفيشاوي وغريمه المقدم سنقر الكلي (أبو بكر عزت) والمقدم دليّة (ليلى فوزي)، بصراع بين البطل ومماليك الأتراك بشكل رئيس، بينما تبدو الدولة العثمانية بعيدة ترسل والى أو ترسل فرمان دون وجود فعلي كمحتل، وهنا يؤكد على أن الدراما استدركت هذا الواقع التاريخي بوضع الصورة التركية في مكانها الواقعي كمحتل ومستعمر للمنطقة العربية خلال قرون.

ويتبع المتولي ما تم طرحه من صورة نمطية للأتراك في الدراما المصرية "فترة التسعينيات شهدت الدراما التلفزيونية تصويرًا واضحًا للدولة العثمانية كمحتلة، والسبب في تحريف القاهرة كمثل قتلًا وتعذيبًا وسرقة لمواردها وطاقتها البشرية، ومسلسل "أرابيسك" عام (1994م) ظهر في حلقاته الأولى فنان الأرابيسك حسن النعماني الجد الذي صنع للسلطان العثماني كرسي عرشه تحفةً فنيةً، و"حسن" واحد من الحرفيين المهرة الذين ساققتهم قوات بني عثمان إلى العاصمة الأستانة ليعملوا حرفيين هناك تاركين القاهرة بدون عمّالها المهرة وشيوخ حرفيها، وهي إدانة واضحة من السيناريسيت أسامة أنور عكاشة للمحتل العثماني، وعام (1995م) عُرض مسلسل "الزيني بركات" الذي تناول الفترة التي سبقت الاحتلال العثماني وأظهر السيناريسيت "محمد السيد عيد" عن رواية جمال الغيطاني التي تحمل نفس العنوان، الخيانة التي أوصلت العثمانيين لاحتلال مصر وظهر السلطان طومان باي (رياض الخولي) باعتباره بطلاً قومياً قاد الجيش لمقاومة الاحتلال لكن خيانة كثيرين منهم "الزيني بركات" (أحمد بدير) قد مهدت لدخول العثمانيين على حساب المقاومة".

وختم رامي "لكن درة التاج في فضح العثمانيين ومذابحهم وأباديهم السوداء على المنطقة ومصر كانت من خلال مسلسل "ممالك النار" الذي عُرض عام (2019م)، والذي ركز على دموية واحتلال سليم الأول وأكاذيبه ومحاولات صيغ احتلاله لمصر والشام بأنه فتح إسلامي، من خلال عرض متوازٍ لصعود سليم وطومان باي للحكم وطريق كلي منهما في الوصول إلى العرش وطبائع كل منهما الشخصية، استنادًا على الكثير من الكتب التاريخية، لذلك يبدو بوضوح ما فعلته الدولة العثمانية من خلال المسلسل، وما أقدمت عليه لتدمير مصر ودفعها لتصور من الجهل والرجعية، وأعملت السيف في الجميع وفرضت ضرائب وجزية ولم تهتم بأي تطوير استنادًا على ضعف ظاهره قوة حكامها بالمؤامرات وانشغالهم، على حساب اهتمامهم بالبلاد التي احتلوها".